

## بين محمد وأصحابه

للأستاذ أحمد الشرباصي

حينما ندرس شخصية محمد صلوات الله عليه من جوانبها المختلفة ، نعلم أنه المثل الأعلى الذي يتجلى لكل طامع إلى الأفاخر ، أو طامع في ممالى الأمور ؛ وما زيد حين تجلى ملامح هذه العظمة المحمدية أن نعترف إلى صاحبها شرفاً جديداً ، فليس بمد تكريم الله تكريم ، ولكنهما أنستنا نحن التي نبعث لها عن الخير ، ونطلب لها المزيد من التربية والتهذيب ، وليس كالتدوية الحسنة في الإغراء على التشبه والمضاء . . . وما نريد أن ننظر في شأن رسواننا كما غلا رسواننا ، فإننا نعلم أولاً أن الله أعلى وأكبر ، وأن محمد ابشر ، قيل له من قيل : « إنك ميت وإنهم ميتون » . وقيل عنه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين »

ولو أن هذه العظمة اقتصرت على شخص صاحبها ، فلم يستفص نورها هنا وهناك ، ولم تلق ظلالها الطيبة على هذا وذلك ، لما شغلت التاريخ بهذه الصورة ، ولما بقيت لها هذه الروعة الدائمة وذلك البهاء الموصول ، ولقال القائل : وما نفع كثر عظيم لا ينال الناس منه خيراً ؟ وما قيمة محيط واسع لا يجد الراغبون إليه سبيلاً ؟ . . . ولكن محمداً هو الذي هتف : « ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط » . ولذلك كانت عظمته لغيره قبل أن تكون لنفسه . وكأنما خلق الله رسوله على عينه ، وجمع له أطراف الحماد والمكرم ، ليظهر فيه سر النبوة وسور الرسالة ، ثم أتاح لصفية وحبيبه بمد ذلك أن يفيض من هذا النبع الذي لا يفيض ، على من حوله ومن يأخذون عنه ، والرسول حينئذ لا يستطيع أن يخلق من هؤلاء الأتباع سوراً مطابقة كل المطابقة لشخصه وذاته ، وإلا لصار هؤلاء الأتباع رسلاً مثله ؛ فليس له إلا أن يهيئ لكل واحد منهم ما يناسبه ويلائمه ، فيتميز من حوض الرسول ما استطاع . ومن هنا رأينا العظمة المتجمعة في شخص محمد صلوات الله عليه تتفرق في أشخاص أصحابه ، وفي خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين بوجه

خاص ؛ فهذا أبو بكر مثلاً يرث عن رسوله نور اليقين والأيمان ، ريقوى عنده هذا النور حتى يسطع فيبهر ، فيصفه بالصادق الصدوق قائلاً : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة » ١ . . .

وهذا عمر يرث عن رسوله حسن التدبير وعمق التفكير وسواب النظر وأصالة الرأي ، حتى ليقول فيه المصطفى : « إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . وحتى يستطيع عمر إبان خلافته أن يحوس دولة ما ساسها فيصر مر قويل أو شاه ، وأن يجتهد في أمور الدين والدنيا ، فيهديه ربه إلى فض مشكلات وحل معضلات ما كان يقدر عليها لولا أنه تخرج من مدرسة النبوة التي نفيض بالهدى والرشاد . . .

وهذا عثمان يرث عن رسوله رقة الطباع ودماثة الاخلاق وشدة الحياء ، حتى يستحى من نفسه وهو منفرد متجرد لا فتسالة ، وحتى يقول فيه الرسول : « أصدق أمي حياء عثمان » . وإنه ليدخل على الرسول فيستحى الرسول منه ، فتدأله عائشة عن سبب ذلك ، فيقول : « ألا استحى من رجل تستحى منه الملائكة ؟ » وهذا علي يرث عن رسوله زهد ونقشفه ، حتى تهون في نظره أعراض الحياة وأغراض الديش ولذائذ الدنيا ، فيصرخ في وجه الدنيا قائلاً : « يادنيا غري غري ، إلى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ هيات ، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيهن . آه من طول الطريق ، وقلة الزاد ووحشة السفر »

وهناك ناحية أخرى . . . إن القائد يجب ألا يتفرد بالسلطان والمجد ، وألا يستأثر بالرأى يستحوذ عليه ، أو الثناء يستبد به . وكمن أناس هيات لهم الاقدار أن يبلنوا مناسب القيادة والرياسة ، فحيل اليهم أنهم قد ساروا في السكون آلهة ، وما من إله إلا إله واحد ، فلا يقضى أمر إلا بكلمتهم ، ولا يوجه مدح إلا إلى ذاتهم ، ولا يسبح مسيح إلا بمجدهم وشكرانهم ، وإن قلبهم الحاقدة الحاسدة لتتميز من النيط وتقطع من الفل إذا رأوا شعفا فيهم فهل مكرومة أو استحق عجيذا ، أو بدأ بمجده في الظهور والسطوع . وإهم ليدلون كل شيء لكي يقضوا على كل نايغ أو ناهض ، ليضمنوا البقاء لأنفسهم ، وليرضوا شهوة الأنانية المتعمقة في جذور طباعهم . وأن إيمان تقى الجماعة فيه ليعيش القائد ، وتذل الامة ليمز فرد على أنقاض أبنائها .